

فلسفة التاريخ: الدين والفلسفة والغائية

تأليف: Jean-Marc Tonizzo

ترجمة: نورالدين علوش - المغرب

من اليهودية إلى أرسطو مروراً بكافط وانتهاءً بهيغل "الفاؤل من الله والتشاؤم من الإنسان" مثل عربي

تقر الغائية باعتبارها نظرية فلسفية بوجود قضية غائية، وتفترض هدفاً أخيراً، حيث أنها ترى في الخلق علامة جوهرية أو متعالية منذ البداية. يسمى هذا المنظور كذلك تيلولوجيا (الغائية) الذي يتعارض مع النزعة الميكانيكية.

نطلق فلسفة التاريخ على الفرع الفلسفي الذي يهتم بالتأمل بمعنى ولا معنى الإنسانية. وعلى ما يبدو لي هناك ثلاث مقاربات لفلسفة التاريخ:

- الأولى تعترض على أي محاولة للتأمل في المعنى الأخير للإنسانية. وهذا هو موقف أغلب التيارات الفلسفية المعاصرة لا تهتم إلا بما هو راهن وإلى حد ما المستقبل القريب.

الثانية: تختلف عن الأولى، حيث أن هناك غاية للبشرية تصبو إليها وهذا ما نجده عند كانط وهيغل وماركس؛ بالإضافة إلى أوغست كونت وتوما الأكويني..

المقاربة الثالثة: تهتم بالغائية لكن من أجل الطعن في جدارتها وأهميتها، فمثلاً نجد شوبنهاور يرفض فكرة تقدم الإنسانية، وينتشره يعترف بوجود تقدم للإنسانية، لكن في الاتجاه الخاطئ.

- تاريخ فلسفة التاريخ قبل ولادة المسيح

لفلسفة التاريخ بدايات عديدة، منها الغائية، وفكرة القيامة هي واحدة منها كذلك. نجد فكرة الغائية لأول مرة في فلسفة أرسطو. في كتابه الأخلاق إلى نيقوماخوس يتحدث عن الغائية الكامنة في طبيعة الأشياء. لكن هذا المبدأ الإيجابي لن يظهر جيداً إلا مع اليهودية. في القرن الثالث قبل الميلاد. وحسب اليهودية فإن البشرية تتطور لغاية إقامة مملكة مسيحية عالمية. فظهور الملكوت الأرضي يعني "نهاية الأزمان".

- القرون الكبرى المنشئة للروحانيات

أن تكون فيلسوفاً هو أن تعالج بعض المشاكل، لكن ليس على الصعيد النظري فقط بل على الصعيد العملي كذلك على حسب تعبير هنري دافيد تورور. عرف القرن السادس والخامس والرابع قبل الميلاد نهضة فلسفية دينية كبيرة. حيث نجد الهندوسية والبوذية والطاوية

واليهودية.... إنها أسست قواعد للتجربة الداخلية والباطنية، ففكرة التقدم الإيجابي تأسست في تلك القرون المثمرة فلسفيا ودينيا، حيث تأسست مع كتابات أفلاطون، بالإضافة إلى أن الحب تطور تدريجيا مع الرغبة البدائية حتى النشوة.

لكن مع ذلك فأفلاطون ينتمي إلى عالم قبل غائي، وكما نجد عند الفلاسفة الآسيوية فتلميذ سقراط نجده مهتم بالتطور الفردي، وحتى السياق الذي كان يعيش فيه سواء السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي لم يسمح له بتصور فكرة التقدم البشري.

- التأثير الحاسم للديانات التوحيدية

في المقابل نجد أن الديانات التوحيدية اهتمت كثيرا بتطور الإنسانية، فإنجيل دانييل في القرن الثالث قبل الميلاد وضع أسس فكرة القيامة.

ثم جاءت أناجيل يوحنا وبولس لترسخ هذا المفهوم، وفيما بعد جاء كبار الفلاسفة المسيحيين أمثال توما الأكويني وأغسطين لغرسها في الوجدان المسيحي نهائيا.

- كانط وهيجل والعقلانية

لكن الرائد في العقلانية بدون منازع هو الفيلسوف الألماني كانط، فهو يعتبر من كبار الفلاسفة الذين اهتموا بمستقبل البشرية، كما أنه من الأوائل الذين انطلقوا من العالم المعيش وليس من فكرة الله، هيجل أعطى بعدا خاصا لهذا العمل الفلسفي.

وأثره من ناحيتين/ الأولى مادية تحقق التاريخ في المطلق والثانية مثالية آية المطلق نفسه. فكل الأفكار المطروحة الآن هي من بنات أفكار هيجل وكانط، فالمفكرون الاشتراكيون والفوضويون (سان سيمون وفورييه 'ماركس. .) عمقوا التوجه المادي والاجتماعي للنوع البشري، فهم عملوا على تحقيق سريع للسعادة الجسدية والاجتماعية للإنسان..

- مازق فلسفة التاريخ

الدرس المستفاد من فلسفة التاريخ أن الناس لا يستفيدون من التاريخ (هكسلي)، تعرضت فلسفة التاريخ منذ البداية إلى يومنا هذا لنقد شديد بل إلى ضرب مصداقيتها.

هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية متناقضة دفعت في هذا الاتجاه:

1- اتجاه تغيير راديكالي

للمجتمع بدون اعتبار قدرات الإنسان.

2- الوهم المسبق بالتربع على قمة البشرية.

3- تجاهل البعد الروحي.

- الاتجاه الأول: استصغار الوقت الكافي لتغيير البشرية

بعض التقدميين من هذا الاتجاه حائقين بسبب الظلم الانساني ويأملون في تغيير مفاجئ للعالم، فنظرياتهم تدعو إلى العنف أو إلى الثورة. وأمام القوة الكبيرة لبعض السلطات يبقى العنف الثوري هو السبيل الوحيد أمامهم. لسوء الحظ، فإن هذه التغيرات الجذرية هي السبب في التسارع الحاد الذي يعرفه المجتمع (الثورات الشيوعية). اليوم العالم بكامله دخل إلى عصر الديمقراطية. ما لم يتلاعب بهذا النموذج الذي يسمح لقوى المعارضة بالتعبير عن نفسها. في ديمقراطية شرعية لن يكون للعنف أي معنى. فالثورات اللاعنفية (غاندي ولوشر كينغ) تتفوق عندما تكون على حق. بفضل الثورة الديمقراطية استطاع الوعي أن ينبو عن العنف في تغيير الإنسان.

- الاتجاه الثاني: مجد الفيلسوف

هناك من الفلاسفة الغائبين الفخورين باكتشافاتهم؛ من اعتبر بان الإنسانية قد اقتربت من اكتمالها. لكن هذا النوع من التقدير الخاطئ يتناقض مع المنطق السليم، الذي يمكن أن يضعف مصداقية نظرياتهم.

هيجل رأى في نابليون روح العالم، فوكو ياما ارتكب الخطأ نفسه، عندما ربط بين نهاية الحرب الباردة ونهاية التاريخ. حسب فوكو ياما: نهاية الصراع الأيديولوجي وتأليه الديمقراطية الليبرالية أهم ما يميز نهاية التاريخ.

فالتاريخ أمامه الكثير من الأيام الجميلة حسب وجهة نظري. يجسد ظهور منظمة الأمم المتحدة العدالة لكن الحق لازال بعيداً، فهذا أمر لا بد منه لإزالة الصرع الأيديولوجي. فيما يخص التفاؤل غير اللائق، ارتكبت النزعة الميكانيكية ذات الطابع العلمي الأخطاء نفسها مرتين. فهي تريد أن تتور بسرعة النظام وتتصور قرب الاكتمال البشري، فالأمر يتعلق بتشويه كبير ومغالطة جسيمة، للوصول إلى كمال لا يمكن تجاوزه، لا بد للبشرية من قطع الكثير من المراحل ولا بد للكثير من العقد أن تحل. لا بد من الأخذ بعين الاعتبار لكل هذا أثناء زيارتك لهذا الموقع.

- الاتجاه الثالث / تجاهل البعد الروحي

تميز القرن التاسع عشر بعودة البعد الروحي، فقرن فرويد وداروين أدى إلى تطور الاتجاه المادي. حيث كانت الكنيسة رجعية ومتواطئة مع السلطة، إذن الفلسفة تجاهلت البعد الغائي لتركز جهودها نحو ما هو ملموس. نعم للمادية نواحي طيبة، فهي تساهم في التقدم التقني والعلمي. بالإضافة إلى دورها في الرفاهية وحرية التصرف والفكر والاعتقاد، فهي تفتح

الأبواب للتمتع بمتاع الدنيا. فأى مستوى آخر للتطور بدون تأمل روحي لن يؤدي بنا إلا إلى العدمية. وبدون البعد الروحي سينتجه الإنسان نحو التوحش والهيمنة.

فالقيم الإنسانية ليست مرصعة لجيناتنا بما فيها الكفاية، لتتخلى عن البعد الروحي. بالنسبة للمادية الخالصة فالإنسان يختزل إلى مكوناته المادية. أو إلى قيمته المادية أو شكله. من هنا فالإنسان لا يمكنه أن يجد معنى لوجوده في ظل هذه التصورات المادية.

لم تكنشف الإنسانية البعد الروحي صدفة، عندما يحاول أي مجتمع أن يلغي هذا البعد الروحي فإنه سيقضي مرجعيته الكبرى. وخير دليل على ذلك عودة الدين في روسيا بعد عقود من الإلحاد. بنفس الطريقة نجد أن حالة الاختناق الدينية التي تسببها العولمة، تساهم في عدم توازن روح العالم الغربي. بدون أفق رحب يجد الإنسان نفسه محشورا في عالم بدون معنى. فالدين كما قال ماركس هو أفيون الشعوب، لكن اليوم السوق هو من يجسد الأفيون.

- منطق فلسفة التاريخ -

نهاية التاريخ ليست الآن المستقبل تم خلقه لتغييره. على حد قول (باولوكويلو)

يجد الفيلسوف دائما حاضره بمثابة نهاية للعالم، رأى هيجل في نابليون روح العالم. وفي الاتجاه نفسه ذهب فوكو ياما إلى أن التاريخ توقف عندما لم يعد هناك صراع إيديولوجي بعد نهاية الحرب الباردة، على ما يبدو سيأتي اليوم ليقول الفلاسفة هذا القول بحق، لكن ليس اليوم. على البشرية قطع الكثير من المراحل للوصول إلى كمالها.

يجب النجاح في تحقيق الانتصارات الجديدة قبل الدخول إلى السلام الأبدي العزيز على الفيلسوف كانط.

Du judaïsme, à Aristote à Kant à Hegel*

Jean-Marc Tonizzo

L'optimisme vient de Dieu, le pessimisme est né dans le cerveau de l'homme. Proverbe arabe.

Le **finalisme**, théorie philosophique, affirme l'existence d'une cause finale. Elle présuppose un dessein, un but ultime. Elle voit dans la création, une signification immanente ou transcendante, présente dès l'origine. Cette perspective est aussi dite téléologique. Le finalisme s'oppose au **mécanisme**.

On appelle « **philosophie de l'histoire** » la ligne philosophique se chargeant de réfléchir au sens de l'humanité.

* ou à son non-sens

Il existe selon moi 3 positions philosophiques face au devenir historique.

-La première, s'abstient tout simplement de s'interroger sur le sens final du phénomène humain. C'est la position la plus courante de la philosophie contemporaine. Seul compte l'immediat et éventuellement le futur proche.

-Pour les seconds au contraire, cette réflexion est fondamentale. L'histoire a une fin et un but déterminé. L'homme ne peut se comprendre qu'à travers ce sens pré défini. Kant et son idéal moral, Hegel et l'esprit absolu, Marx avec l'égalité, Teilhard de Chardin et son point Omega, incarnent ce courant. De nombreux autres philosophes s'inscrivent dans cette réflexion comme Auguste Comte, Saint-Augustin etc.

-Le troisième cas de figure s'intéresse à la finalité, mais pour en contester la pertinence. Schopenhauer réfute l'idée selon laquelle l'homme et l'humanité évolue. Nietzsche pense qu'elle n'évolue pas dans le bon sens.

Notre philosophie se situerait plutôt dans la seconde catégorie. Elle vise même à rassembler l'ensemble de ces diverses finalités. **L'humanité selon nous se dirige vers sa perfection technique, sociale, morale et spirituelle**. La perfection spirituelle étant l'ultime position à atteindre. Ou si l'on préfère, toutes les perfections particulières sont destinées à la perfection spirituelle.

Histoire de la philosophie de l'histoire

Avant Jésus-Christ

Moïse et Aristote

La philosophie de l'histoire à une histoire et plusieurs géniteurs. La téléologie (l'étude des fins dernières imaginée par Aristote) en est un. L'idée d'apocalypse (fournie à l'humanité par les religions monothéistes), un autre.

On rencontre pour la première fois l'idée de téléologie dans la philosophie d'Aristote. L'éthique à Nicomaque sous-entend une finalité occulte à la nature des choses.

* - <http://mecaniqueuniverselle.net/animal-homme/environnement/histoire.php>

Mais le principe d'une fin positive pour l'humanité, prend réellement corps avec le judaïsme. Cette idée apparaît vraisemblablement au IIIe siècle avant notre ère. Pour cette religion, l'humanité évolue jusqu'à l'instauration d'un royaume messianique et universel. L'apparition de la Jérusalem terrestre, marquant « la fin des temps »*.

* La fin des temps n'est selon moi que « l'arrêt de la vision temporelle dans l'esprit humain ». Je m'explique: Puisque Dieu est amour. Si le royaume de Dieu (donc de l'amour), s'impose sur terre, l'homme sera « tout amour ». Être tout amour, c'est être en extase, en béatitude, au nirvana. C'est un état d'immédiateté absolue. Et dans l'état d'immédiateté absolue, l'esprit ne fait plus référence au temps.

Plus tard, le christianisme et l'islam, approfondiront le concept d'apocalypse. Évidemment, toutes ces paternités sont relatives. Les pensées philosophiques et spirituelles circulent à travers le temps et les lieux. Les grands foyers de culture* ont largement participé à tout ce souffle.

*** l'Égypte, la Mésopotamie, la Perse, la Grèce, le Proche-Orient ou l'Inde**

Les Grands siècles créateurs de mystiques

Être philosophe, c'est résoudre quelques-uns des problèmes de la vie non seulement en théorie, mais en pratique. Henry David Thoreau

Les 6e, 5e et 4e siècles avant notre ère ont été un énorme foyer de créativité philosophique et spirituelle. Hindouisme, jainisme, bouddhisme, taoïsme, judaïsme, pythagorisme, orphisme, s'y sont épanouies et ont posées les bases de l'expérience extatique.

L'idée d'une évolution positive est sans doute en germe dans ces siècles féconds. On la voit poindre dans le banquet de Platon. L'amour, en effet, évolue progressivement du désir primaire jusqu'à l'extase.

Mais Platon, appartient encore à un monde pré téléologique. Comme pour les philosophies asiatiques, l'élève de Socrate s'intéresse avant tout à l'évolution individuelle. Il est encore trop tôt dans le temps pour qu'il puisse imaginer un progrès global de l'humanité.

L'influence décisive des monothéismes

Le monothéisme au contraire, est tourné vers l'évolution du phénomène humain. Le livre de Daniel au IIIe siècle avant notre ère pose les bases de l'idée « d'apocalypse ». Les évangiles de Paul et Jean, solidifieront ce concept. Plus tard, les grands penseurs chrétiens (Saint-Augustin, Saint-Thomas) perpétueront cette vision finaliste.

Kant, Hegel, le rationalisme

Mais il a fallu attendre la découverte par l'homme de la totalité de sa planète, pour voir émerger l'idée d'un progrès général. Le précurseur dans la rationalisation de cette question, me semble être Kant. Il est un des tout premiers philosophes à s'être penché scientifiquement sur l'avenir humain. Un des premiers à utiliser le monde phénoménologique et non plus Dieu, comme point de départ à son analyse.

Hegel a prolongé, ce travail téléologique. Il l'a enrichi en distinguant ses deux versants. Un versant matérialiste: la réalisation de l'histoire vers l'absolu. Un versant idéaliste: l'absolu lui-même.

Les thèses de Kant et d'Hegel, ont ensuite fait des petits. Les grands systèmes idéologiques et utopistes du XIX^{ème} siècle en sont les enfants. **Les penseurs du socialisme ou de l'anarchisme* ont approfondie la voie matérielle et sociale de l'évolution humaine.** Ils ont travaillé à la réalisation concrète et rapide du bonheur physique et social de l'homme.

*** Saint Simon, Owen, Marx, Fourier, Comte.**

Cette vision militante du devenir humain, a ainsi ouvert la voie aux combats contre l'aliénation*.

*** bien souvent, les désirs d'accélérer brutalement la libération de l'homme, se sont soldés par des échecs. Il s'agit là d'un désir tout à fait humain, respectable et généreux. Mais il conduit la plupart du temps, à une aberration, comme nous l'a montré l'échec du communisme.**

Impasse de la philosophie de l'histoire

Matérialisme, égocentrisme et oubli du spirituel, comme obstacle

Le fait que les hommes tirent peu de profit des leçons de l'histoire est la leçon la plus importante que l'histoire nous enseigne. Aldoux Huxley

De ses débuts à aujourd'hui*, la philosophie de l'histoire, a été critiqué, voire discrédité.

*** de Kant, Hegel, Marx à Fukoyama**

Trois grandes postures paradoxales, ont sans doute poussé dans ce sens.

1. Le désir de changer radicalement la société, sans tenir compte des capacités humaines à ce sujet.
2. L'illusion d'être déjà parvenu au sommet de l'humanité (contredit par le futur).
3. La négligence du but spirituel.

1/ La mésestimation du temps nécessaire à l'humanité pour se réaliser.

Scandalisés par l'injustice humaine, certains « progressistes » espéraient naturellement un changement brutal du monde. Leurs théories en appelaient à la violence ou à la révolution (par exemple l'anarchisme). Face à l'étanchéité mentale de certains pouvoirs, les déchainements révolutionnaires étaient alors la seule voie possible.

Malheureusement, ces évolutions radicales sont à l'origine d'une trop vive accélération de la société*.

*** En voulant imposer des valeurs transcendantes comme l'égalité, bien avant que la conscience humaine ne puisse vraiment l'accepter, le communisme a été rejeté.**

Aujourd'hui, le monde est entré dans l'ère de la démocratie. Lorsqu'il n'est pas manipulé, ce modèle permet à toutes les forces d'opposition de s'exprimer. Dans une démocratie loyale, la violence n'est donc plus utile. Les révolutions non-violentes (Gandhi, M. L. King) l'emportent systématiquement quand elles sont justes. Grâce à l'évolution démocratique, la conscience va progressivement prendre le relais de la violence, pour évoluer.

2/ L'orgueil du philosophe

Certains philosophes de l'anticipation, exaltés par leurs découvertes, ont vu l'humanité au bord de sa perfection. Il s'agit là d'une surestimation de son propre présent. Ce type d'exagération évidemment, contredit le bon sens. Il peut discréditer quelque peu, leur théorie.

Hegel voyait dans Napoléon l'âme du monde, le sommet de l'évolution.

Francis Fukuyama, commet peut-être la même erreur en associant la fin de l'histoire à la réconciliation Est-Ouest. Selon lui, la fin des conflits idéologiques et l'apothéose des démocraties libérales, marqueront la fin des progrès de l'histoire. Il y aura à mon sens, d'autres étapes entre le libéralisme et le monde idéal. Celui-ci émergera sans doute, bien après **la mort du libéralisme**.

L'histoire a encore, selon moi, de beaux jours devant elle. L'émergence d'un ONU véritablement souverain, universel et juste, me semble encore loin. C'est pourtant une condition fondamentale pour en finir avec les conflits idéologiques.

La mécanique universelle appartient aussi à ces philosophies trop optimistes. Bien souvent d'ailleurs, elle cumule les deux erreurs. Elle voudrait révolutionner rapidement le système et imagine bien souvent que notre espèce est à la porte de sa perfection. Il s'agit évidemment d'une grossière déformation.

Pour atteindre son indépassable perfection, l'humanité a encore beaucoup d'étape à franchir et de nœud à défaire. Il est donc nécessaire de tenir compte de cela, lors de vos visites sur ce site.

3/ L'oubli du sens spirituel.

Le XIXe siècle était chargé de renvoyer le spirituel à ses affaires. Grosso modo, il y est parvenu.

Le siècle de Darwin et de Freud, devait développer la partie matérialiste de l'évolution. Une église souvent rétrograde, parfois corrompue et trop présente dans les rouages du pouvoir, l'exigeait. La philosophie d'alors a donc négligé sa branche téléologique pour se concentrer sur le tangible.

Évidemment le matérialisme a ses bons côtés. Il accélère le progrès technique et industriel. Il accroît le confort, la liberté d'agir, de penser et de créer. Il ouvre des accès au plaisir et aux loisirs. Seulement, quand l'humanité chemine sans réflexion spirituelle, elle rencontre fatalement **l'absurde**. Sans spiritualité, l'homme verse irrésistiblement vers l'animalité et la domination. Les valeurs humaines ne sont pas encore suffisamment incrustées dans nos gènes, pour abandonner le spirituel.

Pour le matérialisme pur, l'homme se réduit à la somme de ses organes, à sa valeur pécuniaire ou à son **apparence**. Il est impossible pour l'être humain de trouver à travers ces notions, un véritable sens à son existence.

L'humanité n'a pas découvert la **spiritualité** par hasard. Lorsqu'une société tente de gommer la présence du divin, elle en perd bien souvent ses repères. Le naufrage de la Russie contemporaine, son retour au religieux, nous montre les limites de l'athéisme. De la même manière, l'étouffement actuel du religieux par le système marchand, déséquilibre l'esprit du monde occidental. Sans horizon confortable, l'homme se retrouve piégé dans un immédiat vide de sens.

La religion, comme le pensait Marx, a bien souvent servi d'opium au peuple. Mais aujourd'hui, le dealer s'appelle: marché.

Logique de la philosophie de l'histoire

La fin de l'histoire n'est pas pour maintenant

Le futur a été créé pour être changé. Paulo de Cuelho

En résumé, bien souvent le philosophe de l'histoire imagine son présent comme une sorte de summum de civilisation. Pour Hegel, Napoléon est l'incarnation de l'idée, l'aboutissement de l'histoire. Fukuyama, dans un esprit hégélien, pense qu'avec nous, l'histoire s'achève, car elle ne rencontre plus sa négation.

Vraisemblablement un jour, des philosophes pourront le dire à juste titre. Mais ce n'est pas encore le cas.

Notre espèce doit encore franchir un certain nombre d'étape avant d'atteindre son ultime perfection. Elle doit réussir de nouvelles prouesses avant d'accéder à ce fonctionnement universel si cher à Emmanuel Kant.